رحلة مع الشعر

أ. فاروق شوشه*

أيها الحفل الكريم..

اسمحوا لي أن أبدأ بتوجيه الشكر إلى المجمع العلمي المصري الذي شرفني باختياري لعضويته، وإلى العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمود حافظ الذي كرّمني بتقديمه لي، وأضفى عليّ ما لا أستحقه من فيض خلقه وعلمه وأستاذيته.

وأرجو أن أبدأ الكلام من حيث ابتدأت الرحلة مع الشعر، وأن أعود إلى ذكريات بعيدة، أحاول أن أتوقف عند بعض ملامحها وقسماتها، في قريتي "الشعراء" إحدى قرى محافظة دمياط، وفي كتاتيب القرية الثلاثة التي تنقلت بينها في طفولتي من أجل حفظ القرآن الكريم. لكن الكتّاب بالنسبة لي، كما أدركت فيما

---

* الأمين العام لمجمع اللغة العربية وعضو المجمع العلمى المصرى.

بعد، لم يكن مجرد مناسبة لحفظ القرآن، بقدر ما كان مدرسة لغوية أولى، تدرّبت فيها على نطق اللغة العربية وتجويدها وإتقان أصواتها، الأمر الذي شكل علاقتي الأولى مع اللغة العربية، وهي العلاقة التي تأكدت وازدادت عمقاً باكتشافي للشعر الذي تعرفت عليه في بعض مُقتنيات مكتبة أبي في بيتنا الريفي، وقد كان معلمًا. وفي هذه المكتبة المتواضعة قرأت الشوقيات في طبعتها الأولى التي أصدرها شوقي قبل بداية القرن العشرين بعامين، ومختارات البارودي، ومنتخبات من النثر والنظم كانت مقررة على معاهد المعلمين حين كان أبي طالبًا، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من مجلتي الرسالة والرواية اللتين كان يصدرهما الأديب الكبير أحمد حسن الزيات.

في مستهل المرحلة الثانوية من الدراسة، وجدت أن قراءاتي الشعرية قد بدأت تتسرب إلى موضوعات الإنشاء التي كنا نكتبها في المدرسة، كما وجدتني أغمغم بين الحين والحين بكلام شبه موزون على غرار ما قرأته وأحببته وحفظته من أشعار. وسرعان ما أفصحت هذه الغمغمات الخافتة عن صورتها الواضحة – بتشجيع من معلم اللغة العربية الذي كان يشجعني على القراءة ويتعهدني بالتوجيه ويهديني الكثير من مقتنياته من الكتب بل ويشتري لي من ماله ما ليس لديه من دواوين شعرية للشعراء الجدد في ذلك الوقت: إبراهيم ناجي وعلي محمود طه ومحمود حسن إسماعيل، بعد أن أغراني بقراءة علي الجارم ومحمود غنيم باعتبارهما من أعمدة المدرسة الكلاسيكية في الشعر. وقد شغل كل منهما منصب عميد مفتشي اللغة العربية في وزارة المعارف – كما كانت تُسمّى، وكنا نطالع كثيرًا من شعرهما في كتب المطالعة والنصوص الأدبية.

في تلك المرحلة الباكرة من العمر، إبان الدراسة الثانوية، كان شعري وفْقًا على المناسبات المدرسية، والوطنية والدينية. وحين اشتعلت الحركة الوطنية في مصر قرب نهاية الأربعينيات وحلول الخمسينيات من القرن الماضي، كنت قد أصبحت شاعر المدرسة الذي تلهب كلماته حماس المشاركين في المظاهرات والإضرابات التي

تطوف شوارع المدينة. واختُتمت هذه المرحلة بإقدامي على أمر لم أكن مُهيئًا له بما ينبغي من فكر وعُدّة شعرية وخبرة مسرحية، وهو تأليف مسرحية شعرية موضوعها الفتنة الكبرى بين علي وعثمان ومعاوية أسميتها "على مسرح التاريخ".

الطريف أن ناظر المدرسة – وكان من رجالات اللغة العربية – تحمّس لطبعها على نفقة المدرسة، وقيام فريق التمثيل بتمثيلها على مسرح المدرسة ومكافأتي بحصيلة بيع النسخ التي اشتراها الأساتذة وعدد من الطلاب. واتسعت المسرحية في صفحاتها الأخيرة لبعض قصائد الحب والعاطفة التي كان لفتاة القرية فضل إذكائها في نفسي، مع توهج سنوات المراهقة، فأنطقتني بالنماذج الأولى من الشعر العاطفي التي عبرّت بها عن المرحلة، ومن بينها:

يا كعبة الحب ما لي من يبادلني
حُبّا بحب على الأيام إلاكِ
كم ذقتُ منكِ الضنى وجدًا وتعْزيةً
وفي التعّلة ما يهواهُ مضناكِ
يهتّز قلبي لذكراكم على ولهٍ
وتستجيب ضلوعي حين نجواكِ
يا مُنية الروح هلاّ بسمة خطرت
على الفؤادِ أُناجيها بذكراكِ
أنتِ الحياة لنفسٍ لا حياة لها
وأنت ورد تهادى بين أشواكِ
القلبُ نشوان والأحشاءُ هائمةٌ
لمّا رمتْها بهم الحبَّ عيناكِ

وحين أُعيد تأمل هذه الأبيات المبكرة، أدرك كم كنت واقعًا تحت تأثير "الشريف الرضي" في كافيته الشهيرة التي فيها:

يا ظبية ألبان ترعى في خمائله

ليَهْنك اليوم أن القلب مرعاكِ

ثم يقول:

سهم أصاب ورامِيهِ بذي سَلَمٍ

منْ بالعراقِ، لقد أبعْدت مرماكِ

وكأنما قُدّر لهذه المسرحية الشعرية – في غير زمانها – ولهذه القصائد المبكرة في الحب والصبابة، أن تكون ختامًا لمرحلتي الأولى مع الشعر، التي كان طبيعيًا أن ألتزم فيها النهْج العمودي في كتابة القصيدة، وأن يكون أعلام هذه المدرسة الكلاسيكية من أمثال شوقي وحافظ إبراهيم والجارم بمثابة الأساتذة الكبار، نروض القول على آثارهم، ونقتدي بهم. حتى إذا أتيح لي أن أنتقل إلى القاهرة في عام قيام الثورة يوليو ١٩٥٢/١٩٥٣ م ملتحقًا بالجامعة، بكلية الآداب في أول الأمر، حيث طه حسين عميد الأدب العربي، وحيث جوّ الاختلاط الجميل بين الطلاب والطالبات الذي كان يستهوى فتى قرويًا مثلي، بكل حياته المحافظة والتقاليد التي كبّلته في عالم القرية، وهو يشاهد هذا الجوّ من خلال بعض الأفلام السينمائية التي أتيح له مشاهدتها، مكافأًة له على النجاح في الدراسة، ثم في كلية دار العلوم التي رأى والدي أنها أفضل لي من حيث الجمع بين العلوم الدينية واللغوية والأدبية، ولأنها تمثل محافظة وانفتاحًا في الوقت نفسه، وهو الأمر الذي لم أكن مرتاحًا له في أول الأمر. وسرعان ما اندمجت في المناخ العلمي والثقافي للكلية ضمن أول دفعة من حَمَلة التوجيهية يتاح لهم الالتحاق بدار العلوم بفضل سياسة عميدها الدكتور إبراهيم اللبان أستاذ الفلسفة الإسلامية، الذي كان حريصًا على أن يزوّدنا بمنهج إضافي في العلوم الدينية، وبخاصة تفسير القرآن الكريم، ومتابعة دراستنا في اللغة الإنجليزية على يديْ أستاذ

أيرلندي كان يُدّرس في كلية الآداب بجامعة عين شمس، وأصبحنا نقرأ معه مسرحيات برنارد شو التي كان يسخر فيها من الإنجليز باعتباره أيرلنديًّا.

المناخ الثقافي في دار العلوم – خارج فصول الدراسة – أتاح لي التعرف والتفاعل والحوار مع كبار شعراء مصر، وشعراء الوطن العربي، وكانوا يشاركون في المناسبات الشعرية بالكلية. الأمر الذي أدّى إلى خلخلة البناء الشعري الكلاسيكي في نفسي بالتدريج واتجاهي تلقائيا ودون تخطيط واعٍ إلى كتابة قصيدة الشعر الجديد متأثرًا بما كان قد بدأ يُنشر من نماذجها في مجلة "الآداب" البيروتية التي بدأ صدورها عام ١٩٥٣م، ثم في الصحافة المصرية والعربية، ووجود بعض أعلام هذا الاتجاه الشعري من المصريين الذين يشاركون في مهرجانات الكلية: صلاح عبد الصبور، وأحمد عبد المعطي حجازي، وكمال نشأت، ومحمد الفيتوري الذي يُعتبر مصرياً بالرغم من أصوله السودانية والليبية وغيرهم. وسرعان ما جرفني تيار الشعر الجديد، الذي رأيت فيه– في ذلك الحين – حاضر الشعر العربي ومستقبله، لما يمثله من ثورة موسيقية وتدفق إيقاعي، واحتفاله بلغة شعرية عصرية، غير معهودة، بعيدة عن معجم الشعراء القدامى، وطرائقهم في التعبير. بالإضافة إلى الأسلوب الواقعي في التناول، وامتلاء بوعي قومي وإنساني جديد.

ثم ما لبث هذا الحماس للشعر الجديد، أن طامن منه رسوخ العلاقة مع الموروث الشعري، في نماذجه الرفيعة والباقية، وهي علاقة لم تكن تهدف إلى تقليد الموروث أو إعادة إنتاجه، وشموخ لغته المحكمة، وفضاءات مجازه الواسعة الرحبة، وافتتان شعراء العربية الكبار في إبداعات عديدة ومتفردة. وربما كان هذا الموقف، هو الذي جعلني لا أغادر فضاء القصيدة العمودية حتى اليوم، وبين الحين والحين أجد القصيدة – وهي تتشكل – تأخذني في هذا المسار دون ترتيب سابق، وأرى أن جوهر الشعر وكيمياءه – أو ماءه بلغة القدماء – أكبر من كل الصيغ والأشكال، وأن حديقة

الشعر تتسع لألوان شتى من الإبداع الشعري، ولا يكتمل جمالها وبهاؤها إلا بهذا التعدد والاختلاف شكلاً ولونًا وعطرًا.

ولعلي في هذه القصيدة التي جاءت وليدة مشاركتي في مهرجان عالمي للمرأة، حين مجدت نفسي وحيدًا ليلة وصولي إلى الفندق، – بعد أن سبقت الشعراء المشاركين – بين خمسمائة امرأة يمثلن نساء العالم، لعلي في هذه القصيدة كنت أشارف الأعراف الفاصلة بين لونين من الإبداع الشعري، تحدثت عنهما فيما سبق. أما القصيدة فعنوانها "للعبير اختناق":

أخرستني العيونُ والأحداقُ
فكلامي الشرودُ والإطراقُ
الخُطى لهفةٌ، وبعض انعطافُ النفسِ
وجدٌ ولهفةٌ واشتياقُ
وجناحان من حنينٍ يرفّانِ
فهذا المدى ضُحىً وانعتاقُ
والهوى مركبي لدار حماها
وحماها النجوم والأشواقُ
واستُبيحت ممالكي، فخيالي
مشرئبٌ الخطى وقلبي يساقُ
والهوى دائرُ الحُمّيا، فقلبٌ
مستجيرُ اللظى، وقلبٌ مُراقُ
عنفوان الجمال يعتو، فأهفو
وبعينّي من لظاه احتراقُ
حيثما درتُ، يصعد الدفءُ طقْسًا
عبقريًا، وتُجهشُ الأعماقُ

ويغيبُ المْحلُ الجديبُ، وتحيا
من جديدٍ، وتنبتُ الأوراقُ
خَفرٌ في العيون أن تكتم الشجْوَ
فللشّجو في العيون انبثاقُ
وارتداء إلى المسافاتِ ينأيْن،
وينأى الوميضُ والإبراقُ
السّنون التي قطعْنا: اغترابٌ
والطريق التي احتوتْنا: فراق
غارقُ في العيون هيهات أطفو
يالَقَلْبٍ يلذُّه الإغراقُ
ربّ ألقيْتني بوادٍ ظليلٍ
تتمنى وروده العشاقُ
ما الذي الآن أشتكي؟ رُبّ نُعْمَى
قتلتني، وللعبير اختناقُ
قد يُطاقُ الجمالُ فرْدًا، ولكن
كلُّ هذا الجمال كيف يطاقُ؟

لا يفوتني أن أشير إلى أن الشعر – في جوهره – فنّ لغوي، من هنا كان التمرس باللغة تجريبًا ومغامرة، فضلا عن الإتقان والإحكام، أساسًا ومنطلقًا لاستقبال الحال الشعرية وإبداع تشكيلها، وصوْغها في البنية الملائمة والأكثر اقتدارًا وتعبيرًا. وبقدر تمرُّسي بهذه اللغة في مستويات مختلفة، ومُتصاعدة، ظل إحساسي ووعيي يقودان رحلتي مع الشعر، مفصحًا عن موقفي من هذه اللغة، وحفاوتي بها، ونُشْداني للغة شعرية تكون أكثر خصوصية وتمايزًا، لا تختلط بلغات الآخرين وقسماتهم

وملامحهم، وتُمثّل جهدي الأساسيّ في مسيرتي الشعرية، وهو المعنى الذي حاولت التعبير عنه في صورة شعرية من خلال قصيدتي "أحبُّكِ حتى البكاء":

ها أنت تشاغلُ لغةً
كبِرتْ بك،
ومعكْ
لم تبتعدا
أو تتباعدْ أجنحة منك ومنها
بينكما سرٌّ
أقدمُ من سِفْر التكوينِ
وأعمقُ من طبقاتِ الأرض
وأبعدُ من نجمٍ يتملكه بعضُ فُضول
فيحاولُ أن يتطلع عبرَ سماءٍ واحدةٍ
عبْرَ سماءيْنِ
ماذا قالت هذه اللغةُ؟
وماذا قلْتَ؟
وأنت تصيدُ أوابدَ
راحلة في قلب هجير المْحل
وقطرة طلٍّ
راحت تتشكّل في قلب اللّيْلِ
لتُفصح عن جْلوُتها في الفجر المُخضّلِ
تظلُّ تُسائلُ:
ماذا فجّرت النجوى تحت عذابِ الحرْف؟
وكانت أعناقُ السّوْسنة تشبُّ
وتقفزُ فوق سياج العتْمةِ

تقنصَ فرحتها من بوْحةِ عطرٍ
وشميم صَبَا
أو طلعةِ نوْرٍ
من أكمامٍ راحت تتشقّقُ
وهي تضخّ السرّ الأول في الكونِ
قصيدةَ حُبٍّ تسّاقطُ مطرًا
من بين أصابعَ مُحترقة
في يد عاشقْ
لم يُطفئْ أشواقَ يراعهْ
أو كوّة نُورٍ يُشرقُ من أسوارِ العتمْةِ
وهو يزلزلُ ديجور الطاغوتِ
ليسْطع بين الناس بهاءُ العقْل
أو عابر درْبٍ يترنّحُ
في رحلة كوْنٍ مُختلّ
يتشهى قدْحه شررٍ
أو ومضة برقٍ مُسعفةً
بمتى؟ ولعلّ!
ماذا يبقى بعد جفافِ الحرْفِ
وفوضى الكلماتْ!
وتناعق أغربة الحقدِ الأسودْ!
وحناجر دربّها الهتافون المأجورون
بحْثًا عن خلخلة المعنى
وهشيم الفكرِ المُعْتلّ؟
أحراشُ تعوي فيها ذُؤبان اللّيل

وجنادلُ توقفُ مجرى الماءِ
وصوت صهيلِ النهر
وعناكب تفترسُ الطرقات
نفثتْ مُعْجَمها
وتعرّت ملْءَ فضاء مباذلها
ومَضتْ تتسلّ!
لكنّ يقينَكَ،
يُنجيك ويُغنيكَ،
وينسجُ من أوراد الرؤيا
وسطور النجم العالي
وشعاع الفجر الصادقِ
عِقْدًا منظومًا كم يتشكّلُ
دوْمًا في دائرة العيْنِ
ولكن لا يتبدّلُ
أبدًا في دائرة القلْب!
كيف يخون ملامحهُ،
أو يترجّلْ؟
أطلقْ للريح شراعًا مُقتحمًا
واقبضْ بيديك على معشوقتك الموعودة
وانفخْ فيها من روحك
حتى تنهضَ من كبْوتها
وتُلوّح لك
فالريحُ معكْ!

في ختام هذا الحديث، أرجو أن أذكرّ هذا الحفل الكريم، بأن الشعر ما يزال الجوهرة الفريدة في عقد الإبداع العربي وبأن هذا الزمن – كجميع الأزمنة – هو زمن الشعر الذي يتوهج بإبداعات الشعراء المصريين والعرب، يُبدعون ويغامرون ويقتحمون، ويتجاوزون إبداع القدماء، بالتحليق في فضاءات جديدة لم تكن معهودة من قبل، والانطلاق في مسارات جديدة، تكتمل فيها دائرة الفن والوعي والعصرية، وتتشكل من خلالها صور وصيغ جديدة للقصيدة العربية، التي ما تزال تُسعد مُتلقيها وتملؤهم بالنشوة والبهجة والفرح، وتحفزهم إلى معانقة الحياة والكون والوجود.

كما أرجو أن أتوجه بالشكر العميق – ثانيةً – للمجمع العلمي المصري ولرئيسه العالم الجليل الأستاذ الدكتور محمود حافظ، على هذه الفرصة التي أتيحت لي لمخاطبة هذا المجمع المتميز، والحديث إليهم عن الفن الذي أعطيته حياتي وجهدي وتمرّسي باللغة وبالكتابة: فن الشعر.

وشكرًا لكم،،،

* * *